بناء مصر الحديثة

محاضرة بالفرنسية للدكتور طه حسين
ترجمة وتقديم وتعليق د . حامد طاهر *

تقديــم :

فى شهر إبريل سنة ١٩٥٠ م ، ألقى د . طه حسين — وكان حينئذ وزيراً للمعارف المصرية — محاضرة بالفرنسية ، فى المركز الجامعى لدول البحر الأبيض المتوسط بمدينة نيس Nice ، بمناسبة إنشاء كرسى علمى بالمركز ، يحمل اسم « محمد على » (١) . وقد جاء فى خطة المركز أن تشمل مهمة الكرسى الجديد إلقاء مجموعة من المحاضرات فى كل عام ، يتولى بعضها أساتذة من الجامعات المصرية ، بالإضافة إلى أساتذة الجامعات الفرنسية .

وقد صرح د . طه حسين بأنه كان يحلم بإنشاء هذا الكرسى العلمى منذ سنة ١٩٣٧ م ، عندما قابل فى باريس الكاتب الفرنسى الشهير بول فاليرى (٢) ، وحدثه عن ذلك الحلم ، فسأله بول فاليرى ضاحكاً :

— هل يمكن لحكومتك أن تعطينا بعض المال لإنشاء هذا الكرسى ؟

فأجابه طه حسين على الفــور :

— تعال إلى مصر ، وستحصل على كل ما تريد .

ولم تشأ الظروف أن يأتى فاليرى إلى مصر ، فقد توفى سنة ١٩٤٥ ، ولكن الذى جاء هو إميل هنريو ، مدير المركز ، وتمت موافقة مصر على إنشاء الكرسى من مالها الخاص سنة ١٩٥٠ .

---

* مدرس بقسم الفلسفة الإسلامية ، بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة .

وفى ٢٨ إبريل من تلك السنة ، كان احتفال المركز الجامعى لدول البحر الأبيض المتوسط فى نيس بافتتاح كرسى محمد على » ، ودعى د . طه حسين لإلقاء المحاضرة الأولى وكان عنوانها : مصر وفرنسا ، والعلاقة التى بدأت بينهما منذ حملة نابليون على مصر ، ثم نمت وتطورت حتى وصلت فى منتصف القرن العشرين إلى نوع من التعاون العلمى الذى يستهدف خير البشرية ، وتطوير المعارف الإنسانية .

لكن تركيز د . طه حسين انصب فى المحاضرة على جهد محمد على فى بناء مصر الحديثة بالتعاون مع الفرنسيين . ومن هنا اخترت لمحاضرته عنوان : « بناء مصر الحديثة » الذى سوف يتضح تماماً من قراءتها .

وفى البداية ، لابد من التنويه بالأسلوب الفرنسى الرفيع الذى ألقى به د . طه حسين محاضرته ، والذى لم يختلف كثيراً عن خصائصه البليغة التى يتميز بها أسلوبه فى اللغة العربية يضاف إلى ذلك تلك اللمحات التاريخية الهامة التى أشار إليها ، ثم ذلك التحليل الهادئ لعناصر نهضة مصر فى عهد محمد على ، دون أن يجامل كثيراً وريثة الجالس حينئذ على عرش مصر ، أو يتملق فرنسا التى كانت فى ذلك الوقت قوة عالمية لا يستهان بها .

ولا شك فى أن أى قارئ للمحاضرة يلمس بوضوح حب طه حسين العميق للشعب المصرى ، وثقته الكبيرة فى مقدرته ، وغيرته الشديدة على استقلالة ، لكنه يدرك أيضاً أنه شعب قد تخلف طويلا عن ركب الحضارة الحديثة ، مع أنه من أوائل بناتها ، لذلك فإنه يشيد كثيراً بالصدمة الفرنسية التى أيقظته من رقدته ، وبالذكاء الفرنسى الذى أضاء له طريق نهضته . وفى هذا الإطار يأتى إعجاب طه حسين بمحمد على : كحاكم مخلص لمصر ، استطاع أن يحسن استغلال الذكاء الفرنسى لصالح الشعب المصرى . وبهذا يلخص طه حسين عوامل نهضة مصر الحديثة فى ثلاثة عناصر رئيسية هى : أصالة الشعب المصرى ، والذكاء الفرنسى ، ومحمد على الذى أجاد استغلال العاملين السابقين فى بناء مصر الحديثة .

فى المحاضرة أيضاً معلومات تاريخية هامة ، ولكنها باهتة فى أذهاننا ومنها على سبيل المثال أن السبب وراء إرسال البعثات المصرية إلى فرنسا بالذات فى عهد محمد على يرجع إلى أنه كان محاطاً بمجموعة ممتازة من أخلص المستشارين الفرنسيين فى كل المجالات تقريباً ، وأن هؤلاء المستشارين هم أنفسهم الذين كانوا يقدمون خبراتهم إلى بطلهم الأسطورى نابليون . لكنهم عندما وجدوا أنه انهزم ، لم يستطيعوا — ولم يقبلوا أيضاً — أن يعودوا إلى فرنسا ، وفضلوا البقاء فى مصر ، ومنح حاكمها المتطلع كل ما يريده منهم من خبرة ومشورة .

وهكذا نجد الفرنسيين مع محمد على ، فى حملاته الحربية كلها التى قادها ابنه إبراهيم باشا فى السودان ، وشبه الجزيرة العربية ، واليونان ، وعلى حدود تركيا نفسها . . كما كانوا معه أيضاً فى إنشاء المدارس الفنية بمصر ، وتنظيم رى الدلتا ، وإقامة القناطر الخيرية ، والارهاص بوصل البحرين الأبيض والأحمر بقناة ملاحية (وهو الحلم الذى تحقق أيضاً فيما بعد على يد دى ليسبس الفرنسى فى حفر قناة السويس) .

لكن طه حسين يؤكد على جانب هام جداً ، وهو علم الآثار المصرية ، أو المصريات Egyptologie الذى أنشأته فرنسا إنشاءاً بفضل مجيئها إلى مصر ، فعرفت المصريين بماضيهم العظيم ، وعرفت العالم كله بمصر القديمة . وإذا كان هذا الفرع الجديد من فروع المعرفة الإنسانية يعتبر مفخرة لفرنسا ، فلا ينبغى أن ننسى أن الشعب المصرى له فى هذه المفخرة نصيب كبير ، فهو الذى أحسن استقبال الفرنسيين ، وسمح لعلمائهم بالإقامة الآمنة بينه ، كما عاونهم فى التنقيب عن الآثار ، والخلاصة أنه أدرك بفطرته أنهم يساعدونه على استعادة جزء عزيز من ماضيه ، فلم يبخل عليهم بشىء .

ولفرنسا دور آخر فى مجال الاستشراق ، والمقصود به هنا مجموعة الدراسات الفرنسية التى دارت حول اللغة العربية وآدابها ، والثقافة الإسلامية وفروعها ، بالإضافة إلى نشر مخطوطات التراث العربى والإسلامى . ولا شك فى أن عدداً من العلماء الفرنسيين قد تميزوا ، فى هذا المجال ، ليس فى فرنسا وحدها ، وإنما فى العالم كله ، وصارت المراكز التى يعلمون بها كجامعة السوربون ، والكوليج دى فرانس ، ومدرسة اللغات الشرقية بباريس مراكز إشعاع يؤمها الطلاب من كافة أنحاء العالم الغربى . وهكذا قدمت مصر — مرة أخرى — إلى فرنسا مجالا آخر جعلها متميزة بين دول الغرب .

والواقع أنه إذا كانت فرنسا قد أصبحت هى مركز الإشعاع الحضارى فى الغرب ، فإن مصر ما لبثت أن أصبحت هى الأخرى مركز الإشعاع الحضارى فى العالم العربى والإسلامى . وإذا كانت باريس هى محط رحال طلاب العلم فى أوربا وأمريكا ، فإن القاهرة هى محط طلاب العلم فى آسيا وإفريقيا : يفد إليها الطلاب من كل الأقطار ليتعلموا فيها ومنها . وهكذا تصبح مصر مع فرنسا نموذجاً فريداً لبث الإشعاع الحضارى فى العالم المعاصر .

ذلك عرض موجز للمحاضرة . وربما كان الانطباع الأول يتمثل فى محاولة طه حسين إعطاء مصر مقومات البلد القادر على منافسة — أو على الأقل مجاراة — الدول الغربية . ومن هنا فإن مفهوم التبعية للغرب غير وارد ، وإذا ورد فإنه يظل محصوراً فى إطار المحاكاة

ن أجل استكمال المقومات الأساسية للنهضة . لقد كان طه حسين — فيما يبدو — يريد أن يجعل من مصر مركز الإشعاع الأول فى الشرق ، كما كانت فرنسا هى مركز الإشعاع الأول فى الغرب . ويترتب على ذلك أن يوجد نوع من التعاون السلمى المتبادل على كل المستويات . ومن الواضح أن التعاون لا يتم إلا بين أنداد . وإذا كانت فرنسا لها من حضارتها القائمة رصيد كبير ، فإن مصر لها من ماضيها الخالد رصيد كبير أيضاً .

* * *

وقد حاولت فى ترجمة النص الفرنسى أن أكون أمينا على قدر ما استطعت لأسلوب طه حسين . ولم أغفل فى مقدمة المحاضرة إلا فقرتين تمتلآن بمجاملة القائمين على افتتاح مركز نيس ، واستقبال طه حسين . أما التعليقات على النص فقد تركزت حول التعريف بالأعلام التى وردت فيه ، وتحديد الأحداث التاريخية المشار إليها ، والتعقيب الضرورى على بعض الأفكار .

النص المترجم للمحاضرة :

قبل محمد على ، كانت العلاقات بين مصر وفرنسا مثل العلاقات بينها وبين أى بلد غربى آخر . وهذا يعنى أنه لم تكن هناك علاقة قط ، أو بالأحرى كانت العلاقة غير طيبة .

كانت مصر تجهل العالم الخارجى ، ولا تعرف منه سوى التجار الذين كانوا يفدون إليها من وقت لآخر ، وهؤلاء كانوا عرضة للاضطهاد : تماماً مثل التجار المصريين والفلاحين المصريين إذ كان هؤلاء جميعاً مضطهدين من جانب المماليك ، ونتيجة للفوضى التى أشاعها الغزو العثمانى ، والتى فرضت على مصر خلال ثلاثة قرون .

كان الجميع يعرفون مصر قبل هذا الغزو . . مصر التى يمتدحها مونتسكيو فى « روح القوانين » (٣) .

أما سلاطين المماليك فقد فعلوا الكثير لكن يحافظوا على الحضارة الإسلامية ضد المغول ، وضد الأتراك . وإن مصر — المماليك هى التى وضعت دوائر المعارف التى حفظت تراث الحضارة الإسلامية والأدب العربى . . مصر — المماليك هى التى أقامت الروائع المعمارية التى يدهش الجميع ، عندما يشاهدونها ، وهم يزورون المساجد التى خلفها المماليك .

لكن الأتراك العثمانيين جاءوا . . فانطفأت الحضارة المصرية . ويمكن القول بأن

الأتراك العثمانيين قد خربوا فى نصف قرن حضارتين : الحضارة الإسلامية فى مصر ، والحضارة البيزنطية فى القسطنطينية .

خلال ثلاثة قرون ، تعرضت مصر لاستبداد نواب السلاطين الأتراك ، وللمماليك الذين لم يستسلموا لفقد ملكهم . فقاوموا بقدر ما استطاعوا . وأصبحو مع الزمن ممثلين للفوضى فى البلاد . كان أهم شيء بالنسبة إليهم أن يقاوموا الأتراك ، وأن يتحدوا فى مواجهة الأتراك ، وأن يمنعوهم من الاستيلاء على تلك الدولة الهادئة التى كانو يحلمون بها . وبمقاومتهم على نحو فوضوى ، سمموا حياة الأتراك والمصريين المساكين .

فى أثناء هذه الفترة ، كانت أى علاقة مثمرة بين مصر والعالم الخارجى مقطوعة ، وكان محكوماً على مصر بالانعزال ، أشد أنواع الانعزال ، ولو لا الأزهر ، الأزهر العظيم ، لكانت مصر قد سقطت فى الجهالة الكاملة ، أشد أنواع الجهالة الكاملة .

وفى نهاية القرن الثامن عشر ، طرقت فرنسا باب مصر . طرقته بصورة عنيفة إلى حد ما ، ونزل بها بونابرت مع حملته العسكرية . لقد أيقظ مصر — ربما بصورة مفاجئة ووحشية — من الخمول الذى فرضه عليها الأتراك . ومن المؤكد أن الفرنسيين لم يقضوا فترة طويلة لكى يدركوا أن مصر بلد لا يمكن استعماره . لقد استحال كل شيء على بونابرت ، وعلى حملته : ثورة مضادة فى داخل البلاد ، ومكائد الإنجليز فى خارجها ، ثم حرب الإنجليز والأتراك ، وتعقد الشئون الفرنسية فى فرنسا ذاتها . كل هذا أدى إلى أن يترك بونابرت مصر فى نهاية العامين .

وعلى أيه حال ، فقد جاءت فرنسا إلى بلد كان نائماً ، وتركته مستيقظاً . لأن الفرنسيين لديهم خاصة تميزهم عن باقى القوى الأوربية الأخرى ، فإنهم لا يقنعون بالاحتلال العسكرى لبلد ما ، لأن لديهم دائماً العقل المتفتح ، ويريدون دائماً أن يتعلموا : يتعلموا لمصلحتهم الخاصة ويعلموا من يحتلونهم .

وهكذا فإن العامين اللذين قضياهما فى مصر لم يكوناً فقط عامى احتلال عسكرى ، أو صراع ضد الإنجليز والأتراك ، لكنهما كانا عامين خصيبين فى مجال العلم والعقل (٤) وقد وجد بونابرت على مدى هذا الاحتلال العسكرى والسياسى والإدارى الوسيلة المناسبة لإنشاء معهد مصر : Institut de L'Egypte ، وأن يرسل إليه بالعلماء الفرنسيين الذين عادوا بصحبة بونابرت ، وفى أيديهم كتاب « وصف مصر » : Description de l'Egypte الذى طبع فى فرنسا ، بعد

عدة سنوات قليلة . كذلك فقد عادوا ، من ناحية أخرى ، بكل ما كان يلزم شامبليون (٦) لكي يكتشف — بعد عدة سنوات قليلة — مصر القديمة أو الفرعونية .

وهكذا فإن حملة نابليون بايقاظها مصر ، قد أنشأت بينها وبين فرنسا علاقات هامة جداً . لكن هذه العلاقات لم تكن خصبة جداً بسبب أنها كانت محدودة ، ولم يستطع الفرنسيون أن يقيموا مع المصريين تلك العلاقة الضرورية لأى تعاون مفيد .

بعد وقت قليل من رحيل الفرنسيين ، أصبح محمد على حاكم مصر . وإذا أردنا تحليل وتوصيف مصر الحديثة لا يمكننا أن نغفل عن ثلاثة عناصر تكون — وقد كونت بالفعل ، وسوف تكون فيما بعد — مصر المعاصرة . وهى أولا : الشعب المصرى الذى لم ينس قط استقلاله فى الماضى ، والذى لم يستطع أن ينسى فقدان هذا الاستقلال ، ذلك الشعب الذى تعرض لأكبر قدر من البؤس ، والغزوات ، لكنه كان يسمم دائماً حياة مستعمريه ، ولم تكن له دائماً راحة إلا فى حصوله على استقلاله :

لقد سمم حياة الفرس قبل الإسكندر ، وسمم حياة البطالسة ، حتى أنهم تبنوا مصر بصورة نهائية ، وقطعوا كل علاقاتهم مع بلادهم الأصلية ، وأصبحوا « فراعنة » معلنين عن طريق اختراع نسب مزيف أنهم يرجعون إلى أسر فرعونية . كذلك فإن الشعب المصرى قد صعب الحياة على الرومان ، إلى حد أن أعضاء مجلس النواب منهم لم يكونوا يستطيعون أن أن يزوروا مصر إلا بعد الحصول على جواز مرور خاص « بسبور » من الامبراطور نفسه . . كذلك فإن هذا الشعب أفسد حياة العرب ، حتى أصبح الخليفة الفاطمى خليفة مصريا ، وأعلن الحرب على بغداد . وهكذا فان مصر لم تنس أبدا استقلالها ، ولا كرامتها ، ولا شخصيتها .

ومن ناحية أخرى ، فإن الشعب المصرى لم ينس أبداً حضارته ، أى أنه لم يستطع أن يعيش إلا منظماً ، متحضراً ، باحثاً دائماً عن كل أنواع التقدم . ومن هنا ندرك أن الشعب المصرى قد عانى كثيراً من الغزو العثمانى ، والاحتلال التركى ، وسمح للمماليك الذين ساعدوا فى الواقع على أن يستعيد استقلاله ، ويطرد المحتل .

عندما جاء محمد على إلى مصر وجد بلداً قد استيقظ منذ قليل ، ومن قليل فقط تذكر ماضيه وكرامته . . وهنا حدث شيء عجيب : لقاء حقيقى بين مشاعر الشعب المصرى من جانب ، وبين طموحات الوالى الجديد من جانب آخر . لقد فهم محمد على مصر أكثر من أى شخص آخر ، وعندئذ حدث ما لم يحدث خلال ثلاثة قرون . . فقد أجبرت مصر السلطان التركى على أن يعطيها محمد على كحاكم وباشا . .

محمد على إذن هو العنصر الثانى من خصائص مصر المعاصرة . كان رجلا ذكياً للغاية ، نادراً فيمن جاءوا إلى مصر . كان ذا شخصية قوية ، حازمة ، حازمة جداً . وكان طموحاً جداً . ولكنه فى أعماقه . . كان انساناً طيب القلب . وبمجرد توليه حكم مصر ، حقق كل ما كان يمكنه أن يحققه ، وكل ما استطاعت مصر أن تحققه ، أو يتحقق فيها . بدأ بالتخلص ، ربما بصورة وحشية ، من المماليك الذين كانوا دائماً مصدر الفوضى وانعدام الاستقرار . وعندئذ شعر محمد على بالتحرر ، وبدأ يفكر جدياً فى مشروعاته الحقيقية .

كان محمد على ، كما سبق أن أشرت ، ذكياً جداً . ومن المؤكد أنه فهم مصر ، وفهمته مصر . ولكن مصر كانت جاهلة . وكان محمد على بحاجة إلى مهارة الآخرين . كان بحاجة إلى ذكاء خاص ، بالنسبة له ، وبالنسبة لشعبه ، ومع ذلك فان هذا الذكاء الذى بدونه لم يكن محمد على قادراً على أن يصنع أى شىء ، والذى بدونه لم تكن مصر قادرة على أن تصنع مع محمد على أى شىء . . هذا الذكاء جاء من فرنسا .

لهذا السبب قلت لكم الآن إننا إذا أردنا أن نحدد خصائص مصر المعاصرة سوف نجد أمامنا ثلاثة عناصر : الشعب المصرى ، ومحمد على ، والذكاء الفرنسى .

والواقع أن هذا الذكاء الفرنسى قد قدم لمصر بأسلوب سهل جداً : فقد حدث أنه فى سنة ١٨١٥ م ، سقطت إمبراطورية نابليون ، ووجد كثير من الفرنسيين التابعين للامبراطور أنفسهم غير مرغوب فيهم ، فى فرنسا نفسها ، كما أنهم لم يقبلوا بسهولة فكرة هزيمة بطلهم نابليون ، ولم يستطيعوا أن يتصوروا فرنسا خاضعة لأوربا . . حينئذ قرروا مغادرة فرنسا . ولأنهم كانوا متعطشين إلى المغامرة ، وروح المغامرات النابليونية ملأت قلوبهم وعقولهم ، كذلك فإنهم عندما وجدوا المغامرة النابليونية تنتهى ، راحوا يبحثون عن المغامرة فى مكان آخر . . وهكذا فإن كثيراً من هؤلاء المغامرين الفرنسيين غادروا فرنسا وجاءوا إلى مصر ، حيث أحسن محمد على استقبالهم : فكانوا مستشاريه ، وموجهى سياسته وفنييه ، وبفضلهم تمكن محمد على من أن يصنع المعجزات ، بالمعنى الكامل لهذه الكلمة .

لم تكن لمصر أية اتصالات مع الخارج فى ذلك الوقت ، فقد كانت بلداً ضعيفاً ، جاهلا ، بعيداً عن كل ما هو هام .

لكن فى خلال عدة سنوات ، فقط استيقظ هذا البلد ، وبدأ يلقى ببصره نحو الشمال ، نحو فرنسا ، التى كانت بالنسبة له رمز الذكاء ، ونحو الجنوب ، أى نحو منابع النيل . وهكذا نظر المصريون نحو الشمال إلى مصادر الذكاء الذى أيقظهم من رقدتهم ، ونظروا نحو الجنوب إلى منابع النيل الذى منحهم الحيـــاة .

وفى حوالى سنة ١٨٢١ ، بدأ محمد على يفتح السودان ، لكن قيادة جيوشه كانت فى أيدى الضباط الفرنسيين ، يعاونهم أيضاً جنود فرنسيون . وقد وجد هؤلاء الضباط فى مصر جيشاً يتكون ، فساعدوه على أن يكمل تكوينه ، وهكذا أتاحوا له إمكانية فتح السودان .

بعد ذلك بوقت قصير ، قامت مصر — بوعى أو بغير وعى — لست أدرى — بالاستجابة المتحمسة لدعوة السلطان التركى إلى محمد على بأن يقضى على الحركة الوهابية فى شبه الجزيرة العربية .

إن مصر تذكر ، خلال وقت طويل جداً من العصر الإسلامى ، أن بلاد مكة والمدينة ، المدينتين المقدستين ، كانت خاضعة لها . وها هى متحمسة ، وها هم أبناء محمد على ينزلون فى شبه الجزيرة العربية ، متعقبين الوهابيين ، ويعيدون فتح هذه البلاد .

لكن جيوش محمد على لم تفعل ذلك وحدها . لقد كانت تصحب معها فى الجزيرة العربية ضباطاً فرنسيين ، وجنوداً فرنسيين . . كانوا يوجهونها ، ويساعدونها ، ويقودونها من نصر إلى نصر .

ثم بعد ذلك بوقت قصير ، نرى مصر تتدخل فى شئون اليونان ، وبجيش محمد على ، وأسطول محمد على ، الذى تكون بعضه فى مصر ، وبعضه فى فرنسا : جرت عملية الغزو . وكان البحارة الفرنسيون هم الذين يقودون الأسطول المصرى لليونان ، والضباط الفرنسيون هم الذين يقودون الجيش المصرى فى تلك الحملة الشهيرة على شواطىء جزيرة كريت ، ثم فى اليونان . وفى هذا كله ، نجد أن الذكاء الفرنسى هو الذى يوجه ، والشعب المصرى هو الذى ينفذ ، ومحمد على هو الذى يستخدم الاثنين معاً بمهارة فائقة .

وأخيراً جاءت المعركة الأخيرة ، حين دخل محمد على فى صراع مع السلطان العثمانى نفسه ، وكان قد استولى على سوريا ، ودخل آسيا الوسطى ، وهدد القسطنطينية ، وأجبر تركيا على طلب الحماية من القيصر ، وعلى قبولها نوعاً من الحماية الروسية على امبراطورية الإسلام ، واضطرت أوربا إلى التدخل لمنع روسيا من احتلال القسطنطينية . وهكذا توصل محمد على إلى الانتصار على تركيا ، وبالتالى فقد أجبر أوربا على الاهتمام — جديا — بالمسألة الشرقية .

على هذا النحو ، خرجت مصر من عزلتها لتصبح قوة محترمة وأكيدة من قوى البحر الأبيض المتوسط ، ومنذ ذلك الحين دخلت مصر فى الاعتبار : اعتبار أوربا كلها .

كل هذه الأعمال قام بها محمد على — كما أشرت سابقاً — بفضل مصر التى عرفت

كيف تستجيب لحاكمها الذى فهمها . وكذلك بفضل الذكاء الفرنسى الذى لم يخيب قط ظن محمد على . كان الفرنسيون هم المستشارين العسكريين والسياسيين والإداريين لمحمد على .

لقد ساعدوا فى قيادة جيوشه إلى النصر . وساعدوه فى أنشاء كل المدارس الحديثة التى كان يحتاجها فى مصر . وساعدوه فى إنشاء وزارة للتعليم العام على الطريقة الأوربية ، وتنظيم المدارس الأولية . والإعدادية . والثانوية — على الطريقة الفرنسية . . ساعدوه على تصور : أنه لكى يعيش ، ويكون محترماً . ينبغى عليه بصورة قاطعة ، ودون أدنى تردد . ودون أدنى نفاق ، أن يتبنى الحضارة الأوروبية . وأن يخرج من مرحلة العصور الوسطى لكى يدخل بصراحة وحرية فى الحياة المعاصرة . ويعيش بالتالى على الطريقة الأوربية .

حوالى سنة ١٨٢٦ . أو ١٨٢٧ . وصلت بعثات الطلاب المصريين إلى فرنسا ، وحوالى سنة ١٨٤٠ . لم يكن هناك أقل من سبعين طالباً فى الجامعة الفرنسية ، وفى المدارس الفرنسية . وفى نفس الوقت تقريباً ، الذى عرض فيه **جيرار دى نرفال** (٧) وصف مصر فى كتابه « **رحلة إلى الشرق** » (٨) كان من المسلى جداً بالنسبة للفرنسى أن يقرأ كتاباً صغيراً ألفه أحد مبعوثى محمد على ، وهو **رفاعة الطهطاوى** ، يحتوى على أوصاف هامة عن فرنسا (٩) وجد المصريون فى هذا الكتاب انطباعات مماثلة للانطباعات التى يجدها الفرنسيون المعاصرون لجيرار دى نرفال فى كتابه « رحلة إلى الشرق » . لقد كانت مصر فى ذلك الوقت بالنسبة لفرنسا « شيئاً » غريباً حق ، ومثيراً . وهاماً ، ومنطقة خصيبة للخيال وللفكر معاً .

وإذا كان محمد على . عندما جاء . قد توصل بمساعدة الفرنسيين إلى تكوين مصر المعاصرة ، فقد حدثت من بعده كثير من التقلبات . وحكم على جهده بالسقوط سنة ١٨٤٠ نتيجة تحالف القوى الأوربية : وتمثل هذا الحكم فى أن تقتصر سلطة محمد على على مصر وحدها . وأن يتنازل عن كل الفتوحات التى حققها . وكل أحلامه فى العظمة . كان مضطراً للاحتفاظ بجيش صغير بدلاً من جيش كبير ، بل إنه كان عليه أن يتخلى عن امتلاك أسطول بحرى .

كان الشخصان اللذان توليا الحكم بعد محمد على يائسين (١٠) . ومرت مصر فى عهدهما بفترة صعبة . ولكن إسماعيل جاء . . واستعاد الثقة والشجاعة ، وحاول تجديد برنامج جده الإصلاحى . ومثله تماماً ، راح يستعين بالفرنسيين . وقد جهد فى حركة الإحياء المصرية التى لم تخمد منذ عهده حتى الآن (١) .

إننا نندهش حقيقة عندما نذكر كل أولئك العلماء الفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر

فى عهد محمد على . فمنذ لحظة وصولهم ، كان يتم استقبالهم بواسطة قنصل فرنسا فى مصر ، وهذا كان يقدمهم مباشرة إلى مقابلة الباشا ، والباشا لا يدعهم يرتاحون ، لأنه هو نفسه لم يكن يعيش فى راحة . كان يستفيد تماماً من كل معارفهم ، ومن كل تجاربهم . ونحن لا نملك أنفسنا من الدهشة عندما نرى أتباع سان سيمون (١٢) يصلون حوالى سنة ١٨٣٠ ، عندما راح يداعبهم فى مصر ذلك الحلم العظيم الذى تمثل فى وصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، ويستمتعون من رؤية القناطر الخيرية : ذلك السد الذى كان الفرنسيون بصدد إقامته لتوسيع الرقعة الزراعية فى الدلتا .

يحكى لنا أن أنفنتان (١٣) وزملاءه السيمونيين ذهبوا مع ابن الأمير ، إبراهيم باشا ، ليزوروا السد ، وتغدوا معاً ، بصورة بسيطة جداً ، ثم احتفلوا بعظمة نابليون ، وبعظمة محمد على ، وفى هذه المناسبة ذبح خروف ، وتبعاً للتقاليد المصرية ، غمس إبراهيم أصبعه فى دم الخروف ، ثم كتب على حجر : الحرف الأول من اسم نابليون ، والحرف الأول من اسم محمد على ، ثم وضع هذا الحجر ، كأول حجر فى بناء المدارس الفنية المصرية .

وهكذا نرى بين مصر ومحمد على والفرنسيين علاقات لا يمكن فصمها . ومن ذلك الحين ، أصبح هناك تقليد جار ، وتاريخ يتعمق مع مرور الزمن . الفرنسيون دائماً هم مستشارو المصريين فيما يتعلق بالذكاء والعقل : عندما تريد مصر إنشاء المدارس ، والجامعات ، والجمعيات العلمية فإنها تتجه دائما إلى فرنسا . وعندما تريد مصر تجديد حياتها فى أى فرع ، كائناً ما كان ، فإنها تقصد دائما فرنسا ، وتنظر نحو فرنسا ، ولا تنظر ناحية أى بلد آخر ، إلا فى المرحلة التالية .

كل هذا يأتى من واقع أنه منذ حملة بونابرت ، قد عزفت فرنسا نهائياً عن أى طموح سياسى فى الإفادة من مصر ، أو استغلالها استعماريا ، ولم تعد تفكر إلا فى شيء واحد ، يتمثل فى طموح مفيد ، وأصبحت رغبتها الوحيدة أن تطور المعارف الإنسانية ، وأن تثرى العقل الإنسانى . (١٤) .

إن هذا التعاون النزيه بين فرنسا ومصر كانت له نتائجه الخصبة . ويكفى أن نستشهد فى هذا الصدد بمجال دراسة الآثار المصرية EgyptOlogie لقد كان هذا الفرع من المعرفة الإنسانية هو هدية فرنسا للعالم كله ، وببساطة لأنها ذهبت إلى مصر ، ولم تذهب إلا للبحث وللتعلم ، ولتعلم الآخرين ، ولتطور حركة العلم ، والمعرفة الإنسانية .

من المؤكد أن مصر أفادت كثيراً من فرنسا . وفرنسا هى التى نبهت مصر إلى الوعى

بنفسها ، وأيقظتها ، ثم كشفت فيها : مصر القديمة ، مصر الفراعنة . إن شامبليون الفرنسى هو الذى عرفنا بمصر القديمة ، وهو الذى عرف العالم كله بمصر ، وأتباع شامبليون ، وماريت (١٥) وماسبيرو (١٦) هم الذين كشفوا عن التاريخ الحقيقى لمصر أمام المصريين أنفسهم ، وأمام العالم كله . . ثم جاءت الأمم الأخرى بعد الفرنسيين فى هذا المجال . لكن يبقى دائماً أن فرنسا كانت دائما فى المقدمة .

ومن الواضح أن مصر قد تلقت من فرنسا كل أنظمة التعليم الحديث . وقد حاولت انجلترا ، بعد احتلالها مصر ، أن تعمل بكل الوسائل على أن تقضى على الثقافة الفرنسية ، وقد انتهى بها الحال إلى نوع من الفشل . فقد لاحظت أن التلميذ المصرى ، الذى لم يتعلم كلمة فرنسية واحدة طوال مدة إقامته فى المدرسة ، وعندما يحصل على شهادة البكالوريا دون كلمة واحدة فرنسية ، فإن أول شىء كان يفعله هذا الشخص بعد حصوله على البكالوريا الإنجليزية التعليم هو أن يتجه لتعلم الفرنسية لكى يستطيع أن يتكلم بالفرنسية . وهكذا فإن المصرى لم يكن يرضى عن عدم قدرته على أن يتبادل بعض العبارات الفرنسية مع الفرنسى الذى يلتقى معه .

ومن المؤكد أن فرنسا قدمت لمصر كل التكنيك اللازم لنهضتها المادية الأولى . لينان دى بيلفوند هو الذى أقام أول سد فى مصر ، وفرديناند ديلسبس (١٧) هو الذى حفر قناة السويس ، وهلم جرا . . ويمكن القول بأن حضارة مصر المادية فى القرن التاسع عشر قد ولدت من التعاون بين المصريين والفرنسيين .

ومع ذلك ، فإن مصر قد قدمت أيضاً لفرنسا شيئاً . . فقد أعطتها جزءاً من مجدها ، مجدها العلمى ومجدها الأدبى ، إننى أتخيل فرنسا فخورة من هذا المجد ، من وجهة النظر العلمية ، عندما تذكر أنها أنشأت علم المصريات فى العالم كله . لكن — يا إلهى ! — بدون مصر ، وحكام مصر ، وتفتح الشعب المصرى ، فإن العلماء الكبار من أمثال شامبليون ، وماريت ، وماسبيرو والآخرين ، لم يكونوا ليتمكنوا من العمل ، ولم يكن باستطاعتهم أن يقدموا للعالم تلك الهدية الفرنسية التى هى « علم المصريات » .

يجب أيضاً أن نذكر الإضافة الأدبية للكتاب الفرنسيين الذين استمدوا إلهاماتهم من مصر . فإذا كان الفرنسيون يجدون متعة فى قراءة جيرار دى نرفال ، أو مراسلات فلوبير (١٨) أو أعمال ماكسيم دى كامب (١٩)، أو روايات تيوفيل جوتييه (٢٠) ، وارموند أبوت (٢١) وأشياء أخرى كثيرة كتبها أدباء فرنسيون ، فإنما كان هذا لأن مصر هى التى ألهمتهم .

وبذلك فإن الأجيال اللاحقة التي تشعر بالفخر وهي تقرأ هذه الأعمال السابقة ، التي تعتبر واجهة مضيئة لفرنسا في العالم كله ، عليها أن تفكر أيضاً في أن هذه الأعمال ما كانت لتوجد لو لم يأت أصحابها إلى مصر ، أو لم يجدوا منها الاستقبال الطيب الذي أتاح لهم أن يعيشوا فيها .

لكن ليست الأعمال الأدبية أو علم المصريات وحدهما هما كل شيء فإننا نشاهد اليوم **الاستشراق الفرنسي** — من وجهة النظر العربية — الذي يعتبر مزدهراً جداً ، ومتألقاً جداً ، وهو الذي قدم إلى **الكوليج دي فرانس** (٢٢) أساتذة كباراً ، وكذلك إلى جامعة السوربون ، ومدرسة اللغات الشرقية ، وعدة جامعات إقليمية في فرنسا . وأنا على يقين من أن المكتبات المصرية ، والمدارس والجامعات المصرية تحفل بمؤلفات هؤلاء المستشرقين .

وهكذا نجد بين فرنسا ومصر نوعاً من العلاقة هو أسمى من التعاون ، وأسمى من الصداقة ، وأسمى من التفاهم المشترك . إن هذا النوع قائم على أساس مشترك بينهما في الهدف ، وفي محاولة إعطاء الجنس البشري كله لمسة من الحضارة .

عندما يذهب أي شخص إلى الجامعة المصرية — وأعتقد أن السيد إميل هنروا قد رأى ذلك بعينيه — فإنه لا يشاهد فيها طلاباً مصريين فقط ، وإنما يجد أيضاً طلاباً من سوريا وفلسطين وإيران ، وطلاباً من المملكة العربية السعودية ، بل إنه قبل الحرب (٢٣) ، كان يفد إلينا الطلاب من الصين واليابان .

كل هؤلاء الطلاب يأتون إلى مصر ليفيدوا من هدية فرنسا لمصر . ومن هنا فإن التعاون بيننا ليس لصالح كل منا فقط ، أو لنا معاً ، وإنما لصالح البشرية كلها .

إنني أعتقد أنه مع استمرار وتعميق هذه العلاقات من التعاون العقلي ، التعاون الخالي من الغرض والمصلحة الشخصية ، التعاون المفيد .. تعطي فرنسا ومصر للإنسانية شيئاً جميلا حقيقياً . إنه النموذج الذي تبحث عنه اليوم هذه الإنسانية ، نموذج السلام ، والحياة القائمة على الاستقرار ، والصداقة ، والتعاون لتطوير وتقدم الحضارة ، دون طموحات حمقاء ، ومصالح سياسية ، ونزعات استعمارية .

بفضل هذا التعاون ، يمكن للمصريين والفرنسيين أن يقولوا للآخرين ، الذين يبحثون عن التقدم الخالص ، التقدم الخالي من كل أنواع الظلال : « تعالوا انظروا ما فعلته فرنسا ومصر . تعالوا انظروا ما تفعله مصر وفرنسا ، وحاولوا أن تتعاونوا فيما بينكم كما تتعاون مصر وفرنسا »

الهوامش :

(١) نشرت هذه المحاضرة فى العدد ٦ — ٧ (يونية — يولية ١٩٥٠) من مجلة
Revue des Conférences fransaises en Orient,
ولم تترجم من قبل إلى اللغة العربية .

(٢) بول فاليرى (١٨٧١ — ١٩٤٥) من أكبر كتاب وشعراء فرنسا فى النصف الأول من القرن العشرين . اهتم بدراسة الإبداع الأدبى — محاولا اكتشاف الوحدة المبدعة للذهن البشرى فى كل المجالا ت الفنية وابتداء من ١٩٣٧ ألقى مجموعة من المحاضرات حول الفن فى الكوليج دى فرانس تابعاً نشر ملا حظاته عن الرسم والموسيقى والعلوم، كما كتب أنواعاً من الحوار السقراطى .

(٣) « روح القوانين » هو الكتاب الرئيسى لمونتسكيو (١٦٨٩ — ١٧٥٥) والكتاب مقسم إلى ٣١ باباً ، يشتمل كل منها على فقرات قصيرة ، تكون فى مجموعها دائرة معارف شاملة عن القوانين وعلاقتها بعقلية المواطنين ، وعدد السكان، والتجارة ، والمناخ ، وطبيعة الأرض . . إلخ والكتاب يحتوى على فكرة مونتسكيو العبقرية الخاصة بضرورة فصل السلطات الثلا ث فى الدولة : التشريعية والقضائية والتنفيذية . وكما قيل بحق إن النظرية السياسية التى قدمها « روح القوانين » قد طغت على نظرية أفلاطون التى قدمها فى « الجمهورية » .

(٤) يقول العقاد فى هذا الصدد : أن نابليون لم يزحف على المماليك بجيش واحد ، بل بجيشين : جيش يحمل السلاح ، وجيش آخر من جماعة العلوم والفنون ، يحمل الكتب والأوراق ، وهو الجيش الذى حشده الفرنساوية فى المدينة » ص ١٤ ، محمد عبده — أعلام العرب — العدد الأول .

(٥) قام المرحوم زهير الشايب بترجمة عدة أجزاء من هذا الكتاب الضخم ظهرت حتى الآن فى ثمانية أجزاء (مطبعة الخانجى بالقاهرة) . ولا شك فى أن هذا العمل محتاج لاهتمام خاص من الدولة لتكملة ترجمته ، وإعادة نشر الأجزاء المحتوية على الصور الدقيقة التى تشمل كل جوانب الحياة فى مصر خلال القرنين الثامن والتاسع عشر .

(٦) شامبليون (١٧٩٠ — ١٧٣٠) هو الذى حل رموز اللغة الهيروغليفية الموجودة على حجر رشيد . وظهر كتابه « مختصر النظام الهيروغليفى » فى باريس سنة ١٨٢٤ .

(٧) جيرار دى نرفال (١٨٠٨ — ١٨٥٥) قصاص وشاعر ، يظهر فى قصصه نوع من الإحساس المفرط ، والخيال المشبوب . أما أشعاره فترهص بالبحث الخاص بمجال الأحلام ، ويعتبر رائداً لبودلير ، ومالا رميه ، والمذهب السريالى .

(٨) ظهر كتاب « رحلة إلى الشرق » فى باريس سنة ١٨٥١ ، وفيه موضوعات عن أخلاق المصريين وعاداتهم ، ونساء القاهرة ، والنساء القبطيات، والأهرام ، ورحلة عبر النيل. ويتميز نرفال عن غيره ممن زاروا الشرق بأنه يترك الجو الشرقى يسيطر على كتاباته ، فى حين

نجد واحداً مثل فلوبير يزور الشرق ويكتب عنه بروح غربية . وعموماً فان « رحلة إلى الشرق » يعتبر فى رأى كثير من النقاد من أجمل الكتب النثرية لنرفال .

(٩) رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) مدرس أزهرى ، وخطيب فى الجيش المصرى. اختير ليكون إماماً للبعثة التعليمية التى سافرت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ ، وظلت هناك خمس سنوات استوعب فيها رفاعة جوانب كثيرة من الحياة الفرنسية ، وسجلها فى كتابه الرائع « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » الذى تحدث فيه عن حياته العلمية فى فرنسا ، وأهم الجوانب التى تمنى أن تنقل منها إلى مصر .

(١٠) يشير طه حسين إلى كل من عباس الذى حكم ست سنوات (١٩٤٨ — ١٨٥٤) وسعيد الذى حكم تسع سنوات (١٨٥٤ — ١٨٦٣) . أما إسماعيل فقد تولى سنة ١٩٦٣ ، وأصبح « خديو » سنة ١٨٧٦ ، وانتهى حكمه الذى استمر خمسة عشر عاماً فى سنة ١٩٧٨ .

(١١) انظر ترجمة إسماعيل ، التى كتبها باقتدار د . محمد حسين هيكل فى كتابه : « تراجم مصرية وغربية » مطبعة مصر . ص ٤٧ — ٧٢ .

(١٢) مذهب السيمونيين (وأشهرهم انفنتان وبازار) مذهب يعترف بالجماعية التى تضمن « لكل فرد حسب قدراته ، ولكل قدرة حسب أعمالها » وينتقد الملكية الخاصة لأنها تنزع إلى الفوضوية فى الإنتاج ، ويدين استغلال الإنسان للإنسان . وقد أصبحت السيمونية فرقة دينية حقيقية ، لكن أتباعها بدأو يتفرقون سنة ١٩٣٣ . ومن المهم الإشارة إلى أن الاقتصاد الفرنسى قد تميز بالحيوية فى عهد السيمونيين الذين تولوه ، وخاصة الأخوين بيير وأنفنتان .

(١٣) اسمه بارتلمى بروسبير ، ويدعى الأب أنفنتان . وهو مهندس واقتصادى فرنسى (١٧٩٦ — ١٨٦٤) ويعتبر أحد مؤسسى المذهب السيمونى .

(١٤) لم يكن هذا صحيحاً على طول الخط . فقد عاود فرنسا حلم احتلال مصر مرة أخرى ، أثناء العدوان الثلاثى الشهير على مصر سنة ١٩٥٦ .

(١٥) أوجست ماريبت (١٨٢١ — ١٨٨١) عالم مصريات فرنسى . هو الذى اكتشف مقابر ممفيس ، وأنشأ فى بولاق المتحف الأثرى الذى تحول فيما بعد إلى متحف الآثار المصرية ، الموجود حالياً بميدان التحرير بالقاهرة .

(١٦) جاستونماسبيرو (١٨٤٦ — ١٩١٦) هو الذى اكتشف تمثال أبى الهول ، ونشر العديد من المؤلفات حول الآثار المصرية القديمة .

(١٧) فردناند دى ليسبس (١٨٠٥ — ١٨٩٤) دبلوماسى فرنسى . هو الذى أقنع خديو مصر بحفر قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، كما فكر فى حفر قناة بنما ولكنه لم يوفق . كان عضواً بالأكاديمية الفرنسية .

(١٨) فلوبير (١٨٢١ — ١٨٨٠) مولف (مدام بوفارى) وروايات أخرى . كان كثير العناية بأناقة الأسلوب . كما حاول أن يعطى صورة موضوعية للواقع ، مع الاحتفاظ ببعض الخصائص الرومانسية .

(١٩) ماكسيم دى كامب (١٨٢٢ – ١٨٩٤) كاتب قصص رحلات ، وروايات ، وذكريات . كان صديقاً لفلوبير ، وعضوا بالأكاديمية الفرنسية .

(٢٠) تيوفيل جوتيه (١٨١١ – ١٨٧٢) شاعر فرنسى ، من أهم أنصار الرومانتيكية وهو أيضاً روائى ، وله عدة مؤلفات أدبية ونقدية .

(٢١) أرمند أبوت (١٨٢٨ – ١٨٨٥) كاتب فرنسى ، مؤلف رواية « ملك الجبال » و « حكاية رجل شهم » . عضو الأكاديمية الفرنسية .

(٢٢) الكوليج دى فرانس : مؤسسة تعليمية أنشأها فرانسوا الأول استجابة لمشورة جيوم بيديه فى باريس ١٥٢٩ ، خارج إطار الجامعة . وقد ظلت قائمة طوال العصور . ودرس بها مشاهير العلماء . وهو حالياً إلى جوار جامعةالسوربون،ويحاضر به كبار الأساتذه فى شتى الموضوعات ، ويشهد المحاضرات كل من يريد من المثقفين والطلاب والجمهور بصفة عامة .

(٢٣) يقصد بالطبع الحرب العالمية الثانية التى بدأت سنة ١٩٣٩ وانتهت ١٩٤٥ .